المحاضرة رقم -٤-

النظرية النقدية

١-الجذور الفكرية للنظرية:

إن تحليل التراث السوسيولوجي لتاريخ النظريات النقدية يوضح أن هذه النظريات بصورتها النقدية جاءت نتيجة للتغيرات التي حدثت على مكونات النظرية السوسيولوجية في حد ذاتها، وكذا حركة النقد الإنساني في تطور مستمر عبر العصور التاريخية وخاصة العصر الحديث الذي تميز بالنقد المتعدد المظاهر، لأنه يتميز بالتحديث والتغير السريع والذي تطور بصورة كبيرة نتيجة الطابع النقدي الذي يشمل جميع نواحي الحياة فالصراع الطبقي مثلا كنظرية اجتماعية ناتج عن عملية نقدية بين من لا يملك ومن يملك، وينطبق هذا عموما على الأفكار والمسلمات العامة التي تقوم عليها النظريات السوسيولوجية.

وتعد النظرية النقدية من أهم النظريات الني انتعشت في فترة ما بعد الحداثة بألمانيا وإن كانتهذه النظرية تبلورت في فترة مبكرة في الثلاثينات من القرن ٢٠ وذلك بمدرسة فرانكفورت وتجسدت في عدة ميادين ومجالات معرفية كالفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة والفن والنقد الأدبي، إلا أن هذه المدرسة ستأخذ طابعا فكريا مغايرا منذ السبعينات من القرن ٢٠م[١].

علاوة على ذلك، فقد ظهرت بعض النظريات السوسيولوجية والسياسية والاجتماعية لتبني أيديولوجيات متصارعة تقوم بصورة أساسية على الطابع النقدي والذي وصل إلى إنشاء مجتمعات ونظم استمر بعضها قرابة القرن، كما ظهر ذلك في النظرية الماركسية والشيوعية وتأسيسها للإتحاد السوفياتي ١٩١٧، وحتى بداية التسعينات من القرن العشرين وفي نفس الوقت ظهرت نظريات سياسية واجتماعية مؤيدة للايدولوجيات الرافضة كالفاشية والنازية والتي تعرف بإيديولوجيات القرن العشرين.

---

[١] توم يوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: سعيد هجرس، دار أويا، طرابلس، ط٢، ٢٠٠٤، ص١٣

لذلك فقد ظهرت النظريات السوسيولوجية كغيرها من النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية نتيجة للحرية النقدية التي ترتبط بالفكر الاجتماعي باعتبار أن هذه النظريات ما هي إلا حصيلة المعرفة البشرية والتي تشكل الواقع الاجتماعي ككل.

٢-مفهوم النظرية النقدية:

يقصد النظرية النقدية تلك النظرية التي ينطلق منها رواد مدرسة فرانكفورت في انتقادهم للواقعية الساذجة المباشرة، فالنظرية النقدية تعني النظام الهيجلي، ونقد الاقتصاد السياسي والنقد الجدلي، وتهدف هذه النظرية إلى إقامة نظرية اجتماعية متعددة المصادر والمنطلقات كالاستعانة بالماركسية والتحليل النفسي والاعتماد على البحوث التجريبية إذن النظرية النقدية هي تجاوز للنظرية الكانطية والمثالية الهيجلية والجدلية الماركسية فهي نقض للواقع ونقد للمجتمع بطريقة سلبية إيجابية، ويعني هذا بشكل آخر أن نقد متناقضات المجتمع، ليس فعلا سلبيا بل هو فعل إيجابي في منظور مدرسة فرانكفورت.

كما يرتبط مفهوم النظرية النقدية بعنوان كتاب "هوركايمر" "النظرية التقليدية والنظرية النقدية " ١٩٣٧، وقد جمع فيه مجمل التصورات التي عرف بها أصحاب مدرسة فرانكفورت سواء النظرية منها أو التطبيقية كما تضمن المقترحات التي كانوا يؤمنون بها لإنقاذ الأدب وتصحيحه.

ومن ثم فالنظرية النقدية هي تجاوز للنظريات الوضعية التي كانت ترفض التأملية الانعكاسية منهجا في التعامل مع الموضوع ومن جهة أخرى فقد استهدفت تنوير الإنسان الملتزم تنويرا ذهنيا وفكريا وتغييره تغييرا إيجابيا بعد أن تم تحريره من ضغوطه الذاتية عن طريق نقد المجتمع إيديولوجيا[٢].

٣-المنطلقات الفكرية للنظرية النقدية: بلورت أفكارها في شكل معطيات ونقاط مؤسسة لتوجههم النقدي وقد تمثلت فيما يلي:

- إن المجتمع ليس مجرد مقولة حيادية كما ذهب إليها أصحاب النزعة الوضعية.
- إن نقد الاتجاهات العلمية والموضوعية التي تقوم عليها الماركسية في صورتها المتزمتة وهي بذاتها تحاول أن تسعى إلى تحويل الفلسفة إلى نظرية اجتماعية تأملية[٣]بمعنى أنها تحاول فصل الفلسفة عن باقي الميادين العلمية الأخرى أي استبعاد أي نوع من التقارب الذي قد يحصل بين الفلسفة والعلوم الإنسانية.

---

[٢]ألان هو: النظرية النقدية، ترجمة: ثائر ديب، دار العين للنشر، ط١، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص١١

[٣]حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، ص ١١

- تحليل الثقافة في مجال الوجود الحقيقي والجوهري للإنسان كما أنها ترى المثقفين هم وحدهم الذين يستطيعون أن يكشفوا بطريقة واعية عن القوى السلبية المتناقضة التي تعمل في المجتمع.
- الدعوة إلى تحرير الطبقة العاملة في المجتمعات الصناعية التي فقدت إمكاناتها الثورية بسبب مجموعة من التغيرات الداخلية والعوامل الخارجية[٤] فالعامل هنا هو العنصر الضعيف في معادلة طرفها كل من صاحب الاستغلال والفوارق الطبقية والاغتراب، أي أنه على قدر ما يبذل العامل من جهد فكري وعضلي على قدر ما يفقد قيمته ويتضخم رأس المال.
- عدم مشاطرة تفاؤل الأحزاب الاشتراكية والثورة السائدة آنذاك التي كانت ترى يوم الخلاص قريب ولاسيما أنها لاحظت أن الأسير يحمل بمعنى من المعاني ثقافة الجلاد.
- لا تحفل النزعة العلمية إلا بالتجربة الخالصة والمحصنة ووحدة التجريب أي أن المجتمع يحفل بالتناقض وإن كانت إمكانية معرفته معرفة دقيقة، غير أنه لا يمكن التجاهل في نفس الوقت عقلانيته وعدمها لأنه نظام صارم بالشكل نفسه الذي هو في غاية الضعف بحيث يخضع للطبيعة العمياء، وأحيانا أخرى للوعي.

٤-أبعاد النظرية النقدية عند ماكس هوركايمر:

٤-١-التشيؤ: لقد انشقت ظاهرة التشيؤ من تعميم البنية التجارية السائدة في المجتمعات الرأسمالية، حيث نتج عن ذلك استبعاد الطابع الإنساني عن العلاقات بين البشر لصالح تشيؤ شاملومتزايد وهذا يعني أن تشيؤ يحول العلاقات الإنسانية في ظل هيمنة النظام الاقتصادي الرأسمالي إلى أشياء جامدة وخاضعة لمنطق التبادل التجاري بالصورة التي يتحول فيها البشر إلى سلع وبضائع، بحيث يخضعون لقوى وأشياء خارجة عن إرادتهم[٥].

٤-٢-مسألة التقنية: إن التقنية هي ذلك الجانب التطبيقي العملي من المعرفة العلمية بل هذه المعرفة نفسها هي في جوهرها تقنية، وإذا كانت هذه الأخيرة قد مثلت في الماضي ذلك

---

[٤]توم يوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: سعيد هجرس، دار أويا للنشر والتوزيع، طرابلس، ط١، ٢٠٠٤، ص٣٧

[٥]دولتان تاز: النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع، درا المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص ١٦١

الجانب التطبيقي والعملي الذي حققه الإنسان، لذلك لم يعد يقبل اليوم، حيث تطورت المعرفة العلمية وأصبحت ذات طابع تقني أدنى[٦]

إذن التقنية هي ما نطلق نحن عليه اليوم بتقنية الأزمة الجديدة ليس فقط أداة أو وسيلة يمكن أن يكون الإنسان سيدها أو ذاتها الفاعلة وقبل ذلك نرى أن هذه التقنية هي نمط تأويل العالم تم إقراره من قبل نمط وسائل المواصلات والتزويد بالمواد الغذائية بل يحدد كل موقف للإنسان في إمكانياته الخاصة أي أنه نمط كل قدراته على التجهيز وهذا ما يجعل التقنية غير قابلة للخضوع والتحكم فيها إلا عندما يخضع لها بدون شروط وقيد وهذا يعني أن التقنية ليست أداة في متناول الإنسان المعاصر، بل أصبحت هي نفسها تستحوذ وتسيطر عليه، ولم يعد الإنسان قادر على الانفلات من حتميتها وضروريتها وعليه نجدها قد سببت للإنسان التيه وعدم الاستقرار واعتبرته مجرد دمية وحولته إلى مجرد موظف للتقنية

٥-أهم الإسهامات التي قدمها رواد النظرية النقدية:

٥-١-النظرية النقدية عند ماكس هوركهايمر:

يتجلى الإسهام الكبير له في نشأة المدرسة النقدية من خلال عمله كمدير لمعهد الدراسات والأبحاث الاجتماعية حيث قدم فيه الدرس الافتتاحي والذي كان عنوانه "الوضعية الراهنة للفلسفة الاجتماعية ومهام مركز البحوث الاجتماعية" وهي بمثابة البيان التأسيسي للنظرية النقدية ومن هنا نستطيع القول أن التبلور الفكري الحقيقي لمدرسة فرانكفورت قد بدأ مع رئيسها السوسولوجي الألماني "هوركهايمر" بحيث استطاع أن يضع نظرية فكرية نقدية في رؤيتها التحليلية، ونجده قد تم عرض هذه النظرية بأكبر قدر من الوضوح في مقال له نشر عام ١٩٣٧، تحت عنوان "النظرية التقليدية والنظرية النقدية".

إن مدرسة فرانكفورت ترتبط ربطا وثيقا بين الفلسفة والواقع الاجتماعي وترى تردي الواقع الاجتماعي واستغلال الإنسان وفقدان حريته وتشيئه، ويعود انفصام هذه العلاقة إلى استقلال التفكير الفلسفي كتفكير نظري بذاته عن الممارسة الاجتماعية، ولا يمكن إصلاح هذا التردي وتحرر الإنسان ي المجتمعات الغربية المعاصرة من كل أشكال الاستغلال والسيطرة

[٦] كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونت، الدار البيضاء للعلوم، ط١، بيروت ٢٠١٠، ص٣٣

التي فرضها عليه المشروع التنويري[٧] فمدرسة فرانكفورت وجدت نفسها تقوم بمهمة رئيسية وتمثلت في ممارسة نمط النقد الفلسفي بحيث ينصب أساسا على الوضع الاجتماعي قصد تغييره وتجاوزه، لذا نجد "هوركهايمر" وجه انتقاداته الحادة للمجتمعات المعاصرة وتحديدا للمجتمعات المتقدمة صناعيا وهذه المجتمعات المتقدمة نجدها قائمة على السيطرة.وبالتالي فإن النظرية لمدرسة فرانكفورت هي ليست نظرية فلسفية خالصة، ولا هي نظرية اجتماعية خالصة بل لها إسهامات فلسفية ونقدية ولقد بينت أبرزها عند "هوركهايمر"[٨].

في هذا السياق نجد "هوركهايمر" في نظره للنظرية النقدية أن هدفها الأساسي هو أن تساهم في تحقيق نوع من إعادة بناء المجتمع وبحيث يصبح أكثر إشباعا وخاليا من ضروب الاستغلال في العلاقات بين الناس وعليه فإنها تعتبر عملية تضع الإنسان على رأس كل نشاط اجتماعي وتجعله هو محور تطور المجتمع البشري، لأنه هو الكائن الواعي بذاته والقادر على إدارة أمور نفسه.

٥-١-رايت ميلز والخيال السوسيولوجي:

تعتبر أراء "ميلز" النقدية أولى النزعات النقدية المبكرة التي تأثرت بآراء النظرية النقدية الكلاسيكية (مدرسة فرانكفورت) التي هاجرت من الولايات المتحدة ووجدت قبولا واسع النطاق.

وتعتبر من أهم المصادر الأولى التي وضعت الجذور الفكرية لظهور النظرية النقدية المعاصرة، وحرص بذلك "ميلز" على أن يجمع بصورة متميزة حصيلة الانتقادات التي وجهت إلى علم الاجتماع ونظرياته ومفاهيمها وأساليبه البحثية، وذلك من أجل وضع تصور نظري وفكري ذات طابع نقدي للخروج من الأزمة التي واجهها هذا العلم بالفعل.

---

[٧] إبراهيم الحيدري: النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير، دراسات عربية، العدد١٠، أوت ١٩٨٩، ص١١١

[٨] علي المحمداوي: موسوعة الأبحاث الفلسفية الغربية المعاصرة صناعة العقل العربي من مركزية الحداثة إلى التفسير المزدوج، ج١، منشورات ضفاف، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص١١٢

وهذا ما جعلنا نؤيد بعض المحللين لأفكار "ميلز" النقدية واعتباره مؤسس الاتجاه النقدي المعاصر في علم الاجتماع خاصة، والنقد الاجتماعي عامة[٩] وأهم ما جاء به "رايت ميلز":

أ- أسس الاتجاه النقدي المعاصر

ب- الاتجاه النقدي وعلم الاجتماع.

ج- المشروع الأخلاقي (الخيال السوسيولوجي): وهو يعتبر من أهم الإسهامات "ميلز" في علم الاجتماع بصورة خاصة، وإن كانت معظم معالجاته السوسيولوجية لا تقل مكانة نظرا لتركيزه على الدور الفعلي الذي يجب أن يقوم به عموما، وذلك لتخطي الأزمة الفعلية التي تواجهه وهذا ما تبلور في فكرة الخيال السوسيولوجي وهي فكرة تصورية وأداة تحليلية لفهم مشكلات الإنسان المعاصر في إطار محصلة البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحيط به في المجتمعات الحديثة، كما جاء كرد فعل للنظريات السوسويولوجية التقليدية التي بعدت كثيرا عن واقع المجتمعات التي ظهرت فيها، ولم تعد ملائمة للتفسير السوسيولوجي الواقعي، وحاول "ميلز" من خلالها إعادة تقييم النظريات السوسيولوجية الكبرى سواء كانت وظيفية أو كلاسيكية، لذلك فهي تعتبر بمثابة منهجية وتحليلية تدرس الفكر السوسيولوجي وتحاول إعادة بنائه من جديد على أسس من البدائل الواقعية التي يمكن أن تفهم الظواهر والمشكلات والبناءات الاجتماعية وعلاقاتها بالفرد والإنسان الحديث بصورة عامة.

٥-٣-ألفن جولدنر وأزمة علم الاجتماع:

يعتبر مؤلف "ألفن جولدنر" عن الأزمة القادة لعلم الاجتماع الغربي من أهم المؤلفات السوسيولوجية التي ارتبطت بالنظرية النقدية المعاصرة خلال النصف الأخير من القرن العشرين، لاحتوائه على أفكار متميزة حول طبيعة الأزمة التي تواجه علم الاجتماع.

إن أفكار "جولدنر" اتسمت بالعمق التحليلي النقدي السوسيولوجي الذي أخذ الطابع التأملي والواقعي والبنائي في نفس الوقت تلك السمات التي ظهرت في الأفكار النقدية المبكرة

[٩] عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٢٠٣

لـ"رايت ميلز"، وحدثت كثيرا من مكونات النظرية السوسيولوجية وتصوراته العامة التي يجب أن يقوم عليها علم الاجتماع.

إن إسهامات "جولدنر" جاءت في فترة كانت يعاني فيها علم الاجتماع من أزمة شديدة وهذا ما حرص على إبرازه بصورة نقدية واقعية.

ومن أهم الأفكار التي جاء بها "جولدنر"، يمكن بلورتها في القضايا الآتية[١٠].

أ- أزمة علم الاجتماع الماركسي.

ب- أزمة علم الاجتماع الحديث.

ج- فكرة التأمل السوسيولوجي: حاول "جولدنر" إيجاد حل لما أطلق عليه أزمة علم الاجتماع الحديث من خلال تطوير التأم السوسيولوجي الذي يقوم على التحرر من مخاطر الوعي الاجتماعي وتنمية وعي ذاتي سوسيولوجي لدى علماء الاجتماع.

ويقصد بالتأمل السوسيولوجي كيفية توجيه علماء الاجتماع المعاصرين بصورة موضوعية ونقدية للافتراضات التي تقوم عليها بحوثهم النظرية والإمبريقية، وإلى كيفية تعميق ما أسماء "جولدنر" بالوعي الذاتي وحاول من خلاله أن يوضح بصورة سوسيولوجية نقدية كيفية تأسيس فكرة الوعي الذاتي عن طريق توضيح الافتراضات الأساسية التي تعتبر الموجه الأساسي لكل من النظرية والمنهج السوسيولوجي[١١].

فعن طريق التأمل السوسيولوجي يصبح دراسة علم الاجتماع بنائي، ويمكن أن يكون علما مستقبليا لعلم الاجتماع الحديث، خاصة إذا اهتم علماء الاجتماع بالافتراضات الأساسية التي يقوم عليها التأمل السوسيولوجي، ومحاولة جعلها نوع من التحليلات الراديكالية التي تسعى إلى التغيير والتحديث وتعميق الوعي الذاتي، فقد حاول "جولدنر" من خلال هذه الفكرة تعزيز مكانة علم الاجتماع وجعله علما شاملا وكليا لذلك نجد "جولدنر" سمي عالم الاجتماع الذي تنبى فكرة التأمل السوسيولوجي بالعالم الراديكالي الذي يسعى لتفسير وفهم الواقع بأكثر عمقا وتحليلا مقاوما من خلالها كل التفسيرات السطحية والرسمية.

---

[١٠] السيد الحسين: نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص ٣٠٤

[١١] السيد حسين: المرجع نفسه، ص٣١٢

٥-٤-جون ركس ونقد المجتمع:

ظهرت تحليلاته في أواخر الستينات، واستمرت إلى غاية وقتنا الحالي، لتثري كل من النظرية السوسيولوجية والمناهج البحثية باستخدام الطابع التحليلي النقدي، ولقد تأثر "ركس" كثيرا بفكرة الخيال السوسيولوجي والذي جاء كنتيجة لحل أزمة علم الاجتماع الغريب

فلقد تميزت تحليلات "ركس" بالطابع التحليلي النقدي الذي بني على أسس نظرية وعلى نتائج بحوث إمبريقية حاول خلالها تبني المداخل النقدية المعاصرة لدراسة العديد من المشكلات المجتمعية، ومن أهكم الإسهامات التي قدمها "جون ركس"

أ- نقد النظرية السوسيولوجية المعاصرة

ب- التحليل النقدي للمجتمع الحديث.

٦-تقييم النظرية النقدية المعاصرة

إن إسهامات النظرية النقدية لا زالت تثري الفكر السوسيولوجي خاصة، ويمكن القول أن النظرية النقدية المعاصرة وجهت لها جملة من الانتقادات تمثلت في:

١- اتخذت النظرية خطا فكريا ذات طابع سوسيولوجي بعيدا بصورة كبيرة عن الخط الفكري الذي تبنته النظرية النقدية التقليدية (مدرسة فرانكفورت)

٢- إن فكرة الخيال السوسيولوجي لـ"رايت ميلز" يتطلب نوع من القدرات والمهارات العقلية التي تساعد علماء الاجتماع كغيرهم من الفئات المهنية والبحثية المتميزة، التي تهتم بدراسة المجتمع، والخيال لا يخرج عالم الاجتماع من أزمته.

٣- اهتمت بالجوانب النظرية أكثر المنهجية، فهي لم تتعرض للطرق والأساليب البحثية التحليلية عند دراسة المشكلات الواقعية الاجتماعية.

٤- لم تستطع النظرية النقدية المعاصرة وضع نظرية سوسيولوجية متكاملة أو تحظى بقبول عام من جانب علماء الاجتماع.

٥- جاءت تحليلات رواد النظرية ذات طابع سوسيولوجي خيالي تأملي لم يستطع علم الاجتماع من خلالها الخروج من الأزمة التي يعاني منه.

٦- ركزت النظرية على ضرورة إقامة علم اجتماع نقدي جديد ليحل محل علم الاجتماع التقليدي، ولكن جاءت عملية الإحلال بصورة شكلية.

٧- لم تعط النظرية النقدية المعاصرة اهتمام للإطار المرجعي التصوري والمقولات الأساسية التي ينبغي أن ينطلق منها علم الاجتماع النقدي الحديث، وهذا ما يجعل المستويات التحليلية (النظرية والمنهجية) تحتاج إلى المزيد من الاهتمام والمعالجات الأكثر تطورا للخروج من أزمة علم الاجتماع الراهنة[١٢].

[١٢]جون ركس: مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ترجمة: محمد الجوهري وزملائه، منشأه المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٧٣، ص ١٣٠